من حدائق الناسك

الاب لورنسيوس الحيمري الديراني

الناسك الحلبي اللبناني

بقلم الاب لويس الحداري الديراني
المدبر الحلبي اللبناني ، والوكيل الاسقفي في كرسي ابرشية صيدا المارونية

٢

رهبان الرهبانية الحلبية اللبنانية

لم تطل الحديث عن حداثة الاب لورنسيوس لاننا لا نعلم منها اكثر مما قلنا . وهذه الكلمة الصغيرة التي دونّاها عن منشأه وتربيته الاولية قد استقيناها من الذين عرفوه وعاشروا معه . اما عن حياته الرهبانية والنسكية فسنطيل الكلام بقدر ما يسمح لنا المجال . ولكن أيمكننا ان نسطر في هذه العجالة ، كل ما كان يحوي ذاك القلب الطاهر من الوداعة والتواضع والمحبة ، ولاسيما من البساطة ؟ أنستطيع ان نماشيه في كل اعماله وحركاته ، لا لعمري ! ولكن كمن يتنزه وسط بستان ، بين الازهار والرياحين ، هل يجمعها كلها في طاقته ، لا بل يأخذ منها ازكاها عرفاً واجملها منظراً ليزين بها صدره ، ويمر الباقي بيديه او بثوبه حتى يتضوع طيبها ليتنشقه . وهكذا نفعل نحن فاننا لا نتبع الناسك في كل حركاته وسكناته بل نتكلم عنه وعن فضائله بوجه العموم . ولا نكتب بقصد ان نعظم ذكره كما قلنا في المقدمة ، فهو لم يحلم بذلك مطلقاً في حياته ، وكيف به الآن وهو في مكان يزدري سكانه كل اباطيل العالم ؟ وانما نفعل ذلك حباً بنفع النفوس التقية .

قلنا بلغ لورنسيوس سن الخامسة عشرة فاشتد فيه الشوق الى ترك العالم واتباع سيده له المجد . فهجر وطنه وآله ودخل الرهبانية في سنة ١٨١٥ . فاتى دير سيدة اللويزة الكائن في معاملة كسروان ، وطلب الدخول في مصاف المبتدئين . فقبله الرئيس العام ، الاب اغناطيوس سركيس عواد ، وألبسه ثوب

التجربة . وحينئذٍ اخذ يجاهد بشجاعة مدهشة ليتمم قوانين المبتدئين ويقتبس الفضائل والكمالات . وهكذا بعد ان قضى سنتين يمارس جميع اصناف الاعمال التقوية والتقشفات الجسدية الى ان قوي وترعرع في الفضيلة واصبح مثلاً صالحاً لاخوته المبتدئين ، ابرز النذورات الرهبانيـة في اليوم الثامن من شهر كانون الاول سنة ١٨١٧ . والبسه الاسكيم الملائكي قدس الاب العـام الآنف الذكر . ثم انصبّ بعـد ذلك على درس العلوم اللاهوتية اللازمة لدرجة الكهنوت المقدسة . ولما انتهى رُقي كاهناً بوضع يد سيادة الطيب الذكر المطران اسطفان الخازن ، في دير القديس موسى الحبشي ، الكائن في قرية بلوني من اعمال كسروان . وذلك في اليوم الرابع والعشرين من شهر حزيران سنة ١٨١٩ . ومن ذلك الوقت اخذ يحرث في كرم الرب بامانة وحرارة وغيرة لا تعرف الملل .

ولما رأى ان الاحسان الى القريب واجب ، بعد محبة الله ، طلب ان يعلم الاحداث في مدرسة زوق مصبح الخـارجية ، فقضى مدة فيها كان في خلالها معلماً صالحاً بل مرشداً حكيماً يحبه تلاميذه كحبهم لوالديهم ويغار هو عليهم كالاب الرؤوف . ومما يروى عنه انه كان مرة بعد الظهر نائماً من دوار اعتراه فاستفاق من نومه بغتة ، وقـال للاولاد : « اخرجوا من هنا كلكم . » فاطاعوا مسرعين . وحالا بعد خروجهم سقطت جدران تلك المدرسة . فتعجب الاولاد وسألوه كيف عرف ذلك وهو نائم . فقال : نبهني الله اليه في الحلم . فتعالوا اذاً نشكره لانه نجانا من الموت الفجائي . فخروا كلهم على ركبهم يباركونه تعالى .

وبعد ان علم مدة وافاد كثيراً احتاجت اليه الرهبانية فانتخبته رئيساً على دير القديس انطونيوس في مدينة رومية العظمى . وذلك على عهد البـابا غريغوريوس السادس عشر ، ورئاسة الاب العـام اجناديوس الزوقي . وكان انتخب قبل هذا العهد ثلاث مرات كاتباً للقرعة في المجمع العام ، وذلك لزيادة الثقة بحسن تقواه وضميره الحي . اما من جهة انتخابه رئيساً فتمنع اولاً بروح التواضع . ولما رأى اخيراً ان لا مناص له ، قبل اتماماً لامر الطـاعة المقدسة فقط ، وتوجه الى رومة سنة ١٨٣٥ . وهناك في تلك المدينـة الابدية ، مقر

الكبرياء ومنبت التواضع ، حيث تلتقي العظمة والجمال في مكان نضبت فيه القساوة القديمة الوثنية وقار في محلها ينبوع الحلم المسيحي ، هناك فوق قبور الشهداء العظام وبين منابر العلماء الافاضل ، تعلم لورنسيوس التمسك باهداب الفضيلة المتينة . وفي اثناء وجوده في رومية كان صديقاً للكردينال ماستاي الذي جلس على الكرسي الرسولي تحت اسم بيوس التاسع . ولما رأى لورنسيوس نفسه محاطاً بالكرامات ، خاف على ذاته من ان ينفخه روح العجرفة ، فطلب بتواضع عميق وخضوع كامل من الاب العام اعفاءه من الرئاسة ، متعللاً بانه غير اهل لها . فاعفاه الاب العام ، وأذن له بالرجوع الى لبنان حسب رغبته ، فرجع وقلبه يرقص فرحاً ؛ لانه انه تخلص من نير المسؤولية الصعب ، ولكن املاً بقرب عهد انجاز عمله الكبير الذي كان يحلم به منذ الصغر ، ألا وهو الزهد الكامل في العالم . لم يكن لورنسيوس ليحب التدخل في امور الدنيا بل كانت نفسه تطمح دائماً الى الانفراد والتأمل . قد خُلق ليعبد الله في العُزلة . وها هوذا الآن يترك الدير باذن رئيسه العام ، ليقضي باقي حياته في الوحدة على مثال ابيه انطونيوس الكبير . فانشأ اذاً له المحبسة المار وصفها قرب دير مار بطرس كريم التين ، ودخلها سنة ١٨٤٢ ، وفي معيته القس حنانيا القليعاتي .

حياة النسك

هذا هو الدور الجديد ، بل هذا هو الدور الوحيد في حياة الاب لورنسيوس الذي نريد ان ننبه الافكار اليه . ليست حياته الماضية سوى طريق او تمهيد لهذا العمل العظيم . وليس جهاده الماضي ليُذكر قرب اعماله النسكية . فحق إذاً يليق ان ننبطه على انتصاره التام على ذاته . ليست البسالة في هوق الدماء ، ولا في خوض المعامع تحت نبال الاخطار ، وانما الشجاعة كل الشجاعة في التفوق على الاهواء الداخلية وكبح جماح الجسد المتمرد . يندفع انسان بداعي الهوس او المجد او الانتقام او ما شاكل لاختراق صفوف الاعداء او الفتك بهم . فان فاز نكلله باكاليل الغار ونحرق امامه بخور التهاني ونلقبه بطلاً ، وان قضى نستعظم عمله ونقول ذهب ضحية الوطن والواجب . اما اذا رأينا وجلاً يسهر الليالي الطوال ليذلل جسده ويستعبده ، ويهرب من المجد

الباطل كهربه من الافعى والثعبان ، لا يطلب سوى خدمة الله والقريب في زوايا النسيان ، فنقول عنه انه مسكين في عقله ، لا يرى أبعد من انفه . والحال اننا في خطأ مبين لان ذاك الذي نلقبه بطلاً في العالم لم يستغرق عمله العظيم سوى ساعة واحدة ، ولم يمت إلا مرة واحدة ، مع ان هذا الثاني قضى حياته كلها جهاداً وكفاحاً ، يموت لذاته الف مرة في النهار . فيه وحده اذاً يختص لقب البطل الحقيقي ، حسب قول ابن الوردي :

ليس من يقطع طرقاً بطلاً انما مَن يتقِ الله البطل

دخل لورنسيوس المحبسة وودع العالم وداعاً جديداً ، وداعاً كاملاً ، وانقطع لخدمة الله فقط . فلبس المسح واخذ يقمع جسده بالجلد والصوم ، جاعلاً فراشه «بلاساً» من الشعر ، ووسادته قطعة من خشب ، زاعماً انه لا يقدر ان يقاوم الشيطان إلا بعد ان يكون غلب ذاته غلبة تامة . واقتصر على اكلة واحدة ، كل اربع وعشرين ساعة ، كان في خلالها يجلد جسده مرتين بسوط من الجلد القاسي الى ان يسيل الدم منه . حتى ان الذي كان يعتني بتنظيف ثيابه كان ينظرها داغاً ملطخة بالدم . لم يقف عند هذا الحدّ من التقشف بل اراد ان يذلل نفسه ايضاً بالاشغال الشاقة ، فاتخذ له بستاناً غرس فيه اشجار العنب والتين ، وكان هو بذاته يحرثه ولفرط زهده لم يذق من ثماره ابداً لزعمه ان الانتصار على شهوة الحلق هو اكبر دليل على نكران الذات . وعلى هذا النمط كان يقضي ايامه تارة بالصلاة الشفاهية ، وطوراً غائصاً بالتأملات العقلية ، وحيناً منعكفاً على الاعمال اليدوية ، وآخر على القراءة الروحية بنوع انه لم يدع دقيقة واحدة من حياته تمر من غير عمل تقوى.

فضائله

اني لاحار عن اي فضيلة من فضائله اتكلم خصوصاً . أعن وداعته ، ام عن طهارته ، ام عن فقره الروحي ام عن غيرته المتقدة لخلاص النفوس ، ام عن محبته لله ؟ . فانها كلها تتلألأ في آن واحد في حياه اللطيف.

هيئته الخارجية

كل من عرفه ناسكاً يُخبر ، كما ان جسده الباقي بلا فساد يدل ، نه

كان ربع القامة ، ضخم الجسم ، اشقر اللون . شعر لحيته ناصع البياض يزيده مهابة وجمالاً على نور الايمان الذي يضيء به الله أوجه محبيه .

طهارته

لم يهجر لورنسيوس العالم ولم يختبئ في زوايا معبده إلا حبًا بحفظ طهارته التي كان يلقبها عروسته المحبوبة ، ويتيم بذكرها ويتمثلها تارة في صليب المخلص يعانقها الفادي بشوق عظيم ، وطوراً في شخص البتول الطاهرة فيذوب وجداً بحبتها . ولكي يحرص على هذه الوديعة الثمينة كان يرفض قطعياً ، في الدور الاول من استنساكه ، مقابلة النساء وجهاً لوجه ، حتى التكلم معهنَّ محتجباً . ولكن لما نيف على الستين ، بدأ يكلمهنَّ من وراء حجاب ؛ واخيراً لما طعن في السن رضي بان يقابلهنَّ بحضور الاخ رفيقه ليرشدهن في سبيل الخلاص .

وداعته وتواضعه

قد عرفنا قبلاً ان التواضع حمله على ترك الرئاسة ، والتواضع ايضاً حبب له الانزواء في كوخه الصغير بعيداً عن مجد العالم . وها نحن نتأكد الآن ان الوداعة ، ثمرة ذاك التواضع ، قد جعلت هذا الشيخ العابس في وقت الصلاة ، ذليل نفسه لطفاً في احاديثه مع الكبار والصغار . اما انعطافه نحو الاولاد فكان فائقاً . كمعلمه الالهي كان يُسرّ بمحادثتهم وملاطفتهم ، لان نفسه كانت تشابه انفسهم بالبساطة الملائكية . ومما يروى عنه انه من عظم محبته لهم ، ولكي يحثهم خصوصاً على تعلم قانون الايمان وباقي الافعال ، كان يُنبئ لهم قرب المذبح خرنوباً . وعندما كان احدهم يقول بعد الانجيل قانون الايمان ، كان يلتفت اليه ويناوله قرن الخرنوب ، بشرط ان لا يأكله في في الكنيسة . فبمثل هذه المعاملة اللطيفة وغيرها كان يكتسبهم اليه ، ويقودهم منذ الصغر في طريق الخلاص الامينة . اما عن تعلق الصغار به فحدث ولا حرج ، فانهم كانوا يجدون في حنانه لذة اكثر منها في حنان امهاتهم .

تقواه ومحبته لله

كانت ايامه كلها مملوءة من روح الصلاة . فكان يصلي دائماً كما اوصى المسيح وكرر رسول الامم بعده خوف ان يدخل بالتجربة . نعم انه ما كان

يقضي كل اوقاته في الصلاة ولكن كل اعماله كان يديرها روح التقوى . اما في صلواته الشفاهية وتأملاته العقلية فكان يجثو في اغلب الاحيان ويداه بشكل صليب ، وكان يذرف دموعاً مرة عندما يتأمل بآلام المسيح ، ولذا شحب وجهه ، وانطبع اثر البكاء في خديه كما يشهد من رآه . وكان يقضي مراراً ساعات طويلة بالتأمل امام القربان الاقدس حتى يخيل انه لا يشعر بوجوده . وكان يفرح عندما تداهمه اوجاع في جسده لانه كان يحتملها بصبر وشجاعة حباً بالله . فيردد « يجب ان نفرح بالامراض لاننا بذلك نصير اخوة حقيقيين ليسوع المتألم . »

غيرته

لو اصغى لورنسيوس لذوقه فقط ، لما كان اختار إلا العزلة الكاملة ، ليدرس وحده على مهل شريعة الله ؛ ولكن غيرته المتقدة لخلاص النفوس جعلته في آخر مدته يكرس قسماً كبيراً من اوقاته لارشاد القريب .

في شرقي المحبسة ، على مسافة ربع ساعة منها قرية صغيرة حديثة العهد ، تسمى « وادي شاهين » ، ملأت رؤوس اكامها اشجار الصنوبر الجميلة ، انساب الى جانبيها ساقيتان ترقرقت مياهها تحت ظل اشجار الدلب والحور الباسقة فجاءت آية في الجمال الطبيعي . لم يكن في البدء فيها كنيسة ، فكان اهلها يضطرون ان يذهبوا الى « عين الحروبة » ، القرية المجاورة لهم ، لسماع القداس ايام الآحاد . فلما صار الحبيس لورنسيوس يسمح للنساء ان يدخلن الى المحبسة ، اخذ اهل تلك القرية يتهافتون كبارهم وصغارهم لسماع ارشاداته وحضور الذبيحة عنده في كنيسته ، فكانوا يصادفون منه بشاشة الاب الصالح والراعي الساهر على خرافه بعين يقظى . ولعظم غيرته عليهم ، كان لا يسمح لاحد منهم مطلقاً ان يذهب الى غير كنيسة ؛ وقبل ابتداء القداس ، كان يلتفت عادة نحو الجمهور قائلاً بساطته المألوفة : « لقيتوا او بعد ؟ » وعندما كان يلاحظ انه ينقص واحد حتى ولو كان ولداً ، كان يقول : « ننتظره بعد ونصلي المسبحة ريثما يأتي . » ولكي يجنب اليهم المجيء ، كان دائماً بعد انتهاء القداس يجلس معهم خارج الكنيسة ، ويحدثهم فرداً فرداً بعذوبة ملائكية عن اشغالهم

واحوالهم الخصوصية ، ويرشدهم كالاب الحكيم ، ومن ثم يوزع عليهم تيناً او زبيباً او لوزاً من ثمار بستانه ، وكان كل واحد ملتزماً بان يقبل هديته .

لم تقف غيرته عند هذا الحد بل دفعته الى اكثر من ذلك . كان منذ دخل المحبسة لم يسمح لنفسه ان يخرج الى خارج مطلقاً ، حتى الى الدير . ولكن لما مرض احد ابناء رعيته في وادي شاهين ، وهو الشيخ اسطفان الجميّل وكان عزيزاً لديه جداً ، أتى لكي يعرّفه ويزوّده الاسرار الالهية ، واتى ايضاً ثانية الى القرية المذكورة ليكهن واحلاً ثانياً الى الابدية .

ولا يزال اهل القرية الى يومنا هذا يلهجون بوادعته وطهارة سيرته ويتمنون ان يحصلوا على ذخيرة منه ، لانهم لا يرتابون ابداً في قداسته .

سألت مؤخراً احد ابناء رعيته من « وادي شاهين » ان يفيدني شيئاً عنه ، فقال : « ماذا اقول لك ؟ كان ملاكاً في منظره وبساطته السارية . فقلت ماذا تتذكره خصوصاً قال بحديثه الحار الطبيعي الذي كان احلى من العسل . واتذكره لاسيما وقت الصلوة حينما كان يجثو ويقرع صدره باكياً . فانه بهذا كان يحبب الى الجميع الاعمال التقوية . » هذه شهادة انسان فاضل بل هذه شهادة كل من عرفه . كان قديساً ، يقول الجميع ، كان وديعاً طاهراً في كل اعماله وتصرفاته . فلو جمعنا كل هذه الاقوال ، والشهادات الحقيقية الصادرة كلها عن قلب والخلاص لصاغت هالة من نور حول قبر الحبيس لورنسيوس تنطق وتبرهن عمّا كان يحوي قلبه من الفضائل السنية .

انعام الله عليه بمعرفة شيء عن الموتى

فلا عجب اذاً ، اذا شرفه الله بمعرفة اسراره الخفية كمثل مشاهدة الانفس بعد انفصالها عن اجسادها . لانه هو تعالى يقول في انجيله الطاهر : طوبى للنقية قلوبهم فانهم يعاينون الله . ولا تظن ايها القارئ الكريم انها ضرب من الخرافات ، كما يتعتها عصرنا الحاضر . ليس من الصعب على الله ان يظهر مجده لاصفيائه . هذا من جهة ، ومن اخرى نقول ان الحبيس لورنسيوس لم يقصد بذلك الافتخار كما يتفلسف البعض ، ليستحظر عليه الحسنات من المؤمنين ، بل كان يرفض قبول ادنى شيء حتى حسنة القداس . ولما كان يسأله احد عن

موته ، كان يخبره بكل بساطة وصراحة بما يعرفه ، وما ذلك إلا بعد ان يكون صام مدة يومين او ثلاثة .

ومما يروى عنه انه كان ليلة نائماً بعد انتصاف الليل . واذا به قد نهض بنتة ، وايقظ الاخ طوبيا الذي كان عنده وقال له : « اذهب حالاً الى الدير واوقظ الرهبان وقل لهم ان الراهب ... قد مات ونفسه تطلب الصلاة . » فاجابه الاخ مبغوتاً : « ماذا تقول يا ابتِ ؟ ان الراهب ... قد نام في هذا المساء لا يشكو من علة مطلقاً . » فكرر عليه ان : « قم وانطلق الى غرفته فتأكد صدق قولي ، لان نفسه مرّت عليّ بعد انفصالها من الجسد ، وطلبت مني الصلاة . » فنهض الاخ ، وسار الى الدير واخذ يقرع باب غرفة القس المذكور . فلم يجبه سوى الصدى . فاعلم الرئيس والرهبان بالخبر فأتوا مسرعين الى الغرفة ، ودفعوا الباب عنوة فوجدوا القس ميتاً كما قال الحبيس . فعندئذٍ مجدوا الله وجثوا كلهم يصلّون عن نفس الراحل مندهشين من هذه الاعجوبة .

استمرّ لورنسيوس الناسك يتقدم هكذا نحو الشيخوخة وعطر طهره وقداسته ينتشر في كل الجهات ، فيأتيه الزائرون من كل حدب وصوب على اختلاف مذاهبهم ، للتبرّك منه ويسألونه الصلاة من اجلهم ليشفوا من امراضهم الروحية والجسدية . الى ان وصل خبر ما يقصّه عن الموتى الى سيادة المطران يوسف جعجع ، رئيس اساقفة قبرس فاستغرب الامر كثيراً ، واستعظمه ، واراد ، بادئ بدء ، ان يوقف الناسك عن القداس ، خوفاً مع ان يكون حصل له خلل في عقله ، ولكنه عزم اخيراً ان يمتحنه بذاته . فارسل اليه مع شماسه يقول : « قدّم غداً الذبيحة الالهية عن نفس والدتي التي توفيت . وارغب اليك ايضاً ان تفيدني مع رسولي في اي محلّ هي ، وهل يقتضي لنجاتها من المطهر قداسات وافرة ام لا ؟ » فاجاب الحبيس : سمعاً وطاعة . وفي صباح النهار المقبل قدّم الذبيحة المقدسة على نية سيادته . وفي الحال عرف ان التي يقدم عن نفسها الذبيحة لا تزال حية ، وعلم ان سيادته قصد بذلك تجربته ، لا غير . فعند نهاية الاسرار المقدسة ، طلب الشماس المذكور الجواب من الحبيس ، فقال له ببشاشة : « اخبر سيادته ان والدته لا تزال في قيد

الحياة ، وصفتها جيدة ايضاً .» فتعجب الشماس من كلامه لانه كان عالماً حقيقة الامر . فرجع وقصّ حقيقة الخبر على المطران الذي دُهش منه ومجّد الله . وتناقلت هذا الخبر جميع الالسن فما كان إلا كالاريج الطيب ، زاد الناس رغبة في زيارة المحبسة والحبيس .

عبادته للبتول الطاهرة

اتينا على اخر الترجمة ولم نقل شيئاً عن عبادته للبتول الطاهرة ، فانه كان مفرماً بمحبتها غراماً شديداً حتى انه اصبح كالطفل لا يمكنه ان يتفوّه بحديث البتة قبل ان يلفظ اسم امه . وقد كان في اكثر ارشاداته يتكلم عنها مع ابنائه الروحيين ، ويحثهم على التمسك بعبادتها ولاسيما بصيام السبت ، زاعماً ان التعبد لها هو ميناء الخلاص الامين .

مرضه ووفاته

هكذا قضى الاب لورنسيوس الناسك حياته الطويلة في الصوم والتقشف والصلاة وقمع الذات والاشغال الشاقة ، الى ان سقط جسمه تحت عبء كل هذه الاعمال ، ولاسيما تحت يد الشيخوخة ، فجاءه المرض في اوائل شباط سنة ١٨٨٠ . فلما علمت القرى المجاورة بمرضه ، اخذوا يتوافدون لزيارته لطلب بركته ولكي يودّعوه الوداع الاخير ، لانهم تأكدوا موته . وكأنه هو شعر بساعته الاخيرة فاخذ يشكره تعالى ويبارك كل الحضور ، ويصلي لاجلهم حتى يجمعهم جميعاً في الاخدار السماوية . ولفظ نفسه الاخير ، بدون توجع ولا كدر فبكاه الجميع بكاء مرّاً ، وكان ذلك في التاسع والعشرين من شهر شباط من السنة نفسها . وما ان بلغ نعيه القرى المجاورة حتى تقاطرت الجموع الى المحبسة لاخذ بركته فغصت تلك الناحية من كثرة الوفود . وكان كل من حضر لا يأوب إلا ومعه ذخيرة من ثيابه . ثم بعد الصلاة ، غيبوه عن الاعين في كنيسة المحبسة ، وجسده باقٍ للآن على حالته الطبيعية لم يعتره الفساد مطلقاً .

وبعد مضي خمس عشرة سنة على وفاته ، نقل جثمانه الطاهر من ضريحه الى محل آخر في الكنيسة حيث أعدّ له رمس ظاهر من الرخام ، فوجد جسده في الحالة المنوّه عنها قبلاً .